الدرس الرابع: ملخص لرواية نجمة لكاتب ياسين.

نجمة هي امرأة غامضة لا يكاد أحد يعرف عنها شيئاً، ولكن من حولها يحوم بحث ورغبات عدد من الرجال: مراد، الأخضر، مصطفى ورشيد. أما هي فتبدو على الدوام غير مبالية كثيراً بما يحدث لها. وربما لأنها تحمل في علبة المسحوق الخاصة بها صورة جندي فرنسي لن نعرف أبداً علاقتها به. ونجمة التي تعبر الأيام بفتنتها ولا مبالاتها، سينتهي بها الأمر سجينة تحت رقابة زنجي عينته القبيلة حارساً. غير أن نجمة، حتى في صمتها الأسطوري، وربما خصوصاً في صمتها الأسطوري تبدو أكثر حضوراً من الشخصيات الأخرى كلها. إذ، بعد كل شيء، هي التي تحدد، بنظرة الآخرين إليها، وعدم اهتمامها هي بالنظر إلى الآخرين، بنية الرواية وسياقها. هذا السياق الذي تبدو لعبته مرايا وأضواء وظلال تعبر حتى اللانهاية في سياق يبدو شبيهاً إلى حد كبير بأسلوب تيار الوعي، ولكن في أصوات متعددة. حيث إن تعدد الأصوات هذا هو الذي يكون، وبالتدريج، صورة نجمة ذات الحضور الكلي من الصفحة الأولى إلى آخر الصفحات. ولعل العنصر الأقوى هنا هو أن هذه اللعبة إنما تأتي لتنم عن خيالية نظرة الذكور إلى أنوثة نجمة، ومن خلالها الأنوثة التي تبدو، من خلال هذه النظرات، أنوثة شديدة الالتباس. ولعل هذا الجانب هو الأساس والأقوى تعبيراً، في رواية غفل مستقبلوها حين صدرت بالعربية، عن هذا الجانب، خصوصاً عن جانب في الرواية أعطى نجمة هالة هلامية جاعلاً إياها أشبه بنجم بعيد المنال، وذلك بالتناقض مع شخصيات أنثوية أخرى، تذرع الرواية بين الحين والآخر، مثل شخصية سوزي التي تطالعنا أول الرواية، أو فتاة المقهى القريبة التي نراها من خلال السطور التي يكتبها مصطفى عنها في دفاتره. مع هذا كله، من الصعب على القارئ أن يعثر في أي صفحة من صفحات الرواية على وصف يسبغه الكاتب على شخصيته المحورية، إذ حتى الرجال الذين يحومون حولها، بمن فيهم كامل الذي تتزوجه بأمر من أمها لا أكثر، لا يبدون قادرين على تحديد أوصافها. بل لعلنا لا نبتعد من غاية كاتب ياسين كثيراً إن نحن لاحظنا أن غالبية الفقرات التي «تحاول» أن تقدم صورة ما لنجمة، تقدمها عبر حركة ما، عبر التفاتة، ما يحيل الوصف وصفاً للحركة أو للالتفاتة، فتصبح نجمة مجموع هذه الحركات والالتفاتات.

من هنا، يصبح من المنطقي النظر إلى نجمة، الشخصية المحورية، ليس بصفتها كائناً في ذاته، بل انطلاقاً مما تفعله بالآخرين، لا سيما أبناء عمومتها منهم، هؤلاء الذين سيبدو لنا، بين حين وآخر، أنهم ليسوا موجودين إلا من أجلها. بل هي التي في صمتها تملي عليهم مسارهم ورغباتهم، وصولاً إلى رشيد، مثلاً، الذي يقوده «ولهه» بنجمة إلى السعي للوصول إلى جذوره، لكنه بدلاً منها يصل إلى المخدرات والعزلة في فندقه النائي. غير أن نجمة لا تبدو لنا أبداً، راغبة في أن تحدث هذا التأثير في الذكور الذين يحيطون بها. إن فعلها غير إرادي، وربما هو نابع من شخصيتها وحضورها المشع وحده. ومن هنا، فإن «دفع الآخرين إلى الفعل» هو جزء عضوي مكون من «رسالة» نجمة في وجودها. من هنا، كل أولئك النقاد والباحثين الذين وجدوا في «نجمة...» «اللغز الذي لا تحله الرواية أبداً»، «امرأة تخفي خلف قناعها النوراني وجهاً آخر هو وجه الجزائر» لم يكونوا مخطئين.